

منهج دراسة المتشابه في الفكر الإسلامي

The article: Approaches to Studying the Allegorical Quranic Verses in Islamic Thought

صالح غضباني¹

¹دكتور بجامعة الزيتونة – تونس.

salah.ghodbani@ yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2024/01/01 تاريخ القبول: 2024/01/14 تاريخ النشر: 2024/01/15

ملخص:

تعامل علماء المسلمين مع المتشابه بطريقتين مختلفتين، فبعضهم يرى ضرورة التوقف وعدم الخوض في تفسير المتشابه، وتمريه كما جاء دون تأويل ولا تشبيه ولا تعطيل. في حين يرى بعضهم الآخر ضرورة فهمه وتفسيره وتوضيحه، مستعينين بما يتماشى وقواعد اللغة العربية وقوانين المنطق الصحيح، ووفق هذين المسلكين سار كل علماء الأمة.

الكلمات المفتاحية: منهج، المتشابه، الفكر، إسلامي، دراسة.

Muslim scholars dealt with the allegorical Quranic verses in two different ways. Indeed, some of scholars were convinced of the need to cautiously shun delving into their interpretation and just transmit them as they came without interpretation, analogy, or negation.

Others however consider it essential to understand, interpret and clarify the allegorical Quranic verses, using the help of all appropriate rules of the Arabic language as well as the laws of correct logic.

It was only through these two distinct approaches that all the scholars of the nation addressed the issue of the allegorical Quranic verses.

Keywords 1-Approach'2- similarities'3- thought' 4-islamic, 5- studying

1- المقدمة

تمحورت دراسات العقيدة الإسلامية، حول رؤيتين تلقتهما الأمة بالقبول، واجتمع حولهما أكثر المسلمين، وقد عرفا بأنهما أبرز ما توصل إليه العقل البشري والفكر المستنير والمنطق القويم، وذلك من خلال متابعة ودراسة كل الآيات القرآنية التي يبدر منها تشابه. وقد أدّى ذلك التتبع والاستقصاء في النهاية إلى بروز قراءتين مختلفتين تبنت كل منهما وجهة تباينت مع الأخرى وعرفت بها، وهذان المنهجان هما:

- أهل الأثر ويمكن أن نصطلح على تسميته بـ: مذهب السلف

- والمنهج العقلي المدعوم بالأدلة العقلية والبراهين المنطقية وهذا ما يمكن أن نتفق على تسميته بـ: مذهب الخلف أو منهج المتكلمين.

وقد عُرف كل من هذين المنهجين بأسلوبه الخاص به عند التعامل مع المتشابه وسنأتي على تفصيله.

1-1- إشكالية البحث:

تتركز إشكالية بحثي حول الإجابة على هذه الأسئلة.

فما هو المتشابه؟

وما هو منهج القرآن في عرض المتشابه؟

وما هي طريقة كل فريق عندما درس المتشابه الوارد في النص المقدس؟

2- 1- الدراسات السابقة:

اهتم علماء العقيدة اهتماما كبيرا بدراسة المتشابه لما له من أهمية بالغة

في فهم النصوص وما يترتب عليها من احكام وتشريعات، فأثمرت جهودهم منهجين

منهج دراسة المتشابه في الفكر الإسلامي

رئيسيين تلقىهم الأمة بالقبول وسار كل منهما على النهج الذي اقتنع به ووافق

الأدلة العقلية والنقلية، نذكر منها على سبيل الذكر:

- متشابه القرآن لأبي عمارة حمزة بن حبيب الزيات

- متشابه القرآن، لأبي عبيدة معمر بن المثنى

- متشابه القرآن، لمحمد بن الهذيل العلاف.

- متشابه القرآن، لجعفر بن حرب.

- متشابه القرآن، للقاضي عبد الجبار المعتزلي

- متشابه القرآن، لعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي.

- متشابه القرآن، محمد إبراهيم الشيرازي

- متشابهات القرآن، لأحمد بن محمد الدردير.

1-3- أهداف البحث:

- اثبات أن في القرآن محكما ومتشابه.

- إبراز دور المتشابه في استنباط الأحكام.

- أن دراسة المتشابه أثمرت منهجين علميين تلقىهم الأمة بالقبول.

- البحث في كلا المنهجين وأدلتهم.

1-4- خطة البحث:

ارتأيت تقسيم بحثي إلى مبحثين رئيسيين:

الأول، منهج القرآن في عرض المتشابه.

الثاني، طريقة الفريقين في دراسة المتشابه.

وقد تعرضت قبل دراسة المبحثين إلى تعريف المتشابه لغة واصطلاحاً وأتيت

على كثير من التعريفات التي لها علاقة ببحثي وفي الخاتمة أتيت على حصر أهم

النتائج وذيلتها بتوصية أرى أنها هامة.

صالح غضباني

2- تعريف التشابه.

أ - لغة:

المتشابه: اسم فاعل من التشابه في اللغة هو كون أحد المثلين متشابهاً للآخر بحيث يعجز الذهن عن التمييز (التهانوي، 1996، صفحة 1437).

المتشابه: بضم الميم وكسر الباء اسم فاعل، المتماثل... ما لم يرج بيان المراد منه لشدة خفائه. وهو خلاف المحكم. (قنيبي، 1988، صفحة 402).

وهو أيضاً: المماثلة، يقال: فلان يشابه فلان، أي: يماثله، فالقرآن كله متشابه في آياته، فبعضها يشابه بعض، فما أمر به في مكان لا ينهي عنه في مكان آخر، وبعضه يصدق بعضاً. (سليمان p. ج3، ص3)

وهو أيضاً: ... اسم فاعل من (التشابه)، ويرد التشابه على معنيين، هما: التماثل، والتلابس، يقول الجوهري (393هـ): «المشتبهات من الأمور: المشكلات، والمتشابهات: المتماثلات» (الجوهري، 1407هـ، صفحة ج6، ص2236)

وكذلك ورد عند ابن فارس (395هـ): «الشين والباء والهاء أصل واحد يدل على تشابه الشيء وتشاكله لوناً ووصفاً» (زكريا، 1399هـ، صفحة ج3، ص243)

ب: في الاصطلاح:

فقد تعددت التعريفات بتعدد زوايا النظر للمعروف، إلا أنها لم تتباين رغم كثرتها لكثرة آراء المعرفين، وقد جاءت كلها مكتملة لبعضها، حيث ازداد المعنى ظهوراً وجلاءً ووضوحاً. ومن هذه التعريفات:

المتشابه: هو ما خفي بنفس اللفظ ولا يرجى دركه أصلاً. كالمقطعات في أوائل السور. (الجرجاني، 1983، صفحة ص200)

المتشابه ما ليسَ بمتضح المعنى. (السنكي، 1411هـ، صفحة تح مازن المبارك، ص80)

منهج دراسة المتشابه في الفكر الإسلامي

المحكم من آيات القرآن الكريم في اصطلاح أهل الأصول: هو ضد المتشابه. (حبيب، 1988)

وكثيراً ما يلجأ المعرّف إلى ذكر عكس المتشابه وهو المحكم، لإبراز الفرق بينهما، وتمييز كل منهما عن الآخر، ليزيد ذلك المعنى وضوحاً وبياناً، ويتم معرفة محاور كلا منهما، وفي هذا السياق وردت هذه التعريفات الآتية. والمتشابه عند المتكلمين هو المتحد في الكيف. وعند البلغاء يطلق على قسم من التجنيس.

وعند الأصوليين والفقهاء هو ضد المحكم. قالوا القرآن بعضه محكم وبعضه متشابه على ما تدلّ عليه الآية المذكورة. وقيل إنّ القرآن كلّ محكم لقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ (هود:1)

وأجيب بأنّ معناه أحكمت آياته بكونها كلاماً حقاً فصيحاً بالغاً حدّ الإعجاز. وقيل كلّ متشابه لقوله تعالى: ﴿كِتَاباً مُتَشَابِهاً﴾ (الزمر:23) وأجيب بأنّه متشابه بمعنى أنّ بعضه يشبه بعضاً في الحقّ والصدق والإعجاز. ثم إنهم اختلفوا في تعيينهما على أقوال. فقول المحكم ما عرف المراد منه إمّا بالظهور أو التأويل. والمتشابه ما استأثر الله بعلمه ولا يرجى دركه أصلاً كقيام الساعة وخروج الدجال والحروف المقطعة في أوائل السور، وبهذا المعنى قيل كلّ ما أمكن تحصيل العلم به سواء كان بدليل جلي أو خفي فهو المحكم، وكلّ ما لا سبيل إلى معرفته فهو المتشابه. وقيل المحكم ما وضع معناه والمتشابه نقيضه. وقيل المحكم ما لا يحتمل من التأويل إلّا وجهاً واحداً والمتشابه ما احتمل أوجه. وقيل [المحكم] ما كان معقول المعنى والمتشابه بخلافه كأعداد الصلوات واختصاص الصيام برمضان دون شعبان قاله الماوردي. وقيل المحكم ما استقلّ بنفسه والمتشابه ما لا يستقلّ بنفسه إلّا برده إلى غيره.

صالح غضباني

وقيل المحكم ما يُدرى تأويله وتنزيله والمتشابه ما لا يُدرى إلّا بالتأويل. وقيل المحكم ما لم يتكرّر ألفاظه ومقابله المتشابه. (التهانوي م.، 1996، صفحة ج2، ص1437)

وهو أيضا - المتشابه: هُوَ المشتبه المُحتمل للتأويل... والمُحكم: مَا لَا يَحْتَمِل من التَّأويل إلَّا وَجْهاً وَاحِداً، والمتشابه: مَا احْتَمَل أَوْجهاً، وَقيل: المُحكم: مَا نَعْلَم تأويله، والمتشابه: مَا اسْتَأْثَرَ الله بِعِلْمِهِ، وَقيل: المُحكم: مَا لَمْ تَتَكَرَّرْ أَلْفَاظُهُ، والمتشابه مَا تَكَرَّرَتْ، وَقيل: المُحكم: مَا أَمَرَ الله بِهِ فِي كلِّ كِتَاب، والمتشابه: مَا سِوَاهُ، وَقيل: المُحكم: النَّاسِخ، والمتشابه: الْمُنْسُوخ. (السيوطي، 2004، صفحة ج1، ص40)

وعرّفه بعضهم فقال: المتشابه: مَا لَمْ يَتَلَقَّ مَعْنَاهُ مِنْ لَفْظِهِ، وَهُوَ عَلَى ضَرْبَيْنِ: أَحَدُهُمَا إِذَا رُدَّ إِلَى الْمُحْكَمِ عُرِفَ مَعْنَاهُ، وَالْآخَرُ مَا لَا سَبِيلَ إِلَى مَعْرِفَةِ حَقِيقَتِهِ، فَالْمُتَّبَعُ لَهُ مُبْتَغٍ لِلْفِتْنَةِ لِأَنَّهُ لَا يَكَادُ يَنْتَهِي إِلَى شَيْءٍ تَسْكُنُ نَفْسُهُ إِلَيْهِ. وَتَقُولُ: فِي فَلَانٍ شَبَهُ مِنْ فَلَانٍ، وَهُوَ شَبْهُهُ وَشَبْهُهُ وَشَبْهُهُ. (منظور، 1414هـ، صفحة ج13، ص505)

كما يحاول بعضهم تعريف المتشابه باللجوء إلى ذكر أنواعه محاولة منه لفك غموضه وإبرازه عن غيره من المفاهيم التي يمكن أن تتقاطع تعريفاتها مع غيرها وقد ورد: المتشابه على ثلاثة أضرب: ضرب لا سبيل إلى الوقوف عليه كوقت السّاعة ونحو ذلك

وضرب للإنسان سبيل إلى معرفته كالألفاظ الغريبة والأحكام المغلقة وضرب (متردد بين الأمرين) يختص بمعرفة حقيقته بعض الراسخين في العلم ويخفى على من دونهم وهو المشار إليه بقوله عليه الصّلاة والسّلام لابن عباس: "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل"، (وإذا عرفت هذا فقد وقفت) على

منهج دراسة المتشابه في الفكر الإسلامي

أَنْ الْوُفَّ عَلَى قَوْلِهِ: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ} وَوَصَلَهُ بِقَوْلِهِ: {وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ} كِلَاهُمَا جَائِز. (الكفوري، صفحة ص846)

ولعلَّ جواز الوقف عند كلا المعنيين، هو ما سهَّل الأمر أمام بروز مدرستين، تعاملت كلا منهما مع المتشابه بناء على ما اقتنعت به وأمنت بجدواه، خاصة وأن كلا الفريقين يعضد كلامه العقل والمنطق والنقل. وهو ما كان عامل إثراء سهل على الناس أمرا في غاية التعقيد، وأبرز مدى سعة الشريعة وسماحتها وصلاحتها لكلِّ زمان ومكان، فلا تثريب ولا تجاوز على من تبني طريقة دون أخرى، بعد أن تبين أن كلاهما مسنودة بالدليل ومحفوظة به.

كما أن تكامل المعنيين اللغوي والاصطلاحي قد عزَّز من وجهة كلا المنهجين، وأظهر سماحة الدين، وعدم تناقضه، مكوِّنا بذلك كلا متجانسا ومتماسكا وواضحا.

3- منهج القرآن في عرض المتشابه.

يظهر للمتتبع للنصوص القرآنية والمتأمل في أساليبها وغاياتها، أنَّ القرآن الكريم اعتمد على الفطرة في دعوته للإيمان بالله تعالى، وما يتَّصل بذلك على أساس نظري، فكلَّ إنسان مفطور على الاعتقاد بوجود إله، مسير لشؤون الوجود، وخالق لهذا العالم ومدبر له، وقائم على تنظيمه. فالنَّاس جميعا يكادون بفطرتهم يُجمعون على ذلك، مهما اختلفت أسماء هذا الخالق عندهم، ومهما اختلفت صفاته بينهم، يستوي في ذلك الممعن في البداوة، والمغرق في الحضارة، وهذا ما يجعل الباحث الاجتماعي في دهشة، إذ يرى اجماع القبائل حتَّى التي لم تتَّصل بغيرها أي اتَّصال، والتي لا تعرف من العالم إلَّا رقعتها من الأرض وغطاءها من السَّماء. ويرى إجماع القبائل على إله خالق لهذا الكون المترامي الأطراف.

فالقرآن الكريم اعتمد على الفطرة الكامنة في النَّفس الإنسانيَّة، وخاطب النَّاس بما يوقظ هذه الفطرة، ويبعث هذه العاطفة الدِّينية وينمِّها، ويقوِّمها

صالح غضباني

ويصلح ما اعتراها من فساد الإشراك، وانحراف في تصوّر الصفات لهذا الخالق العظيم، وأدار الدّعوة على هذا الأساس.

فالله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإنسان، واعتنى به، وأحاط ببيئته، فهو ينتفع بها من أرض وسماء، وليل ونهار، وماء وهواء، وشمس وقمر، وحيوان ونبات...

والله سبحانه وتعالى هو خالق الوجود والكون كلّه، ما ندرك منه وما لا ندرك، وما نعلم منه وما لا نعلم، وهو واجب الوجود وواهب الحياة لما كان فيه حياة منها، وصانع نظام هذا الكون، قال تعالى ﴿وَأَيُّ لَّهُمُ الْأَرْضُ الَّتِي أَخْيَنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ* وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ* لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ* سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ* وَأَيُّ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ* وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ* وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ* لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس:39)

كما أنّ غير الله لا يستطيع أن يخلق شيئاً، مهما كان هذا الشيء حقيراً ولو تجنّد إليه الإنس والجنّ واجتمع عليه أهل الأرض والسموات فلن يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (الحج:73-74)

ثمّ إنّ غدى هذه الفطرة بطلب التأمل والنظر والتفكير في كلّ ما حولنا من أشياء، قال تعالى ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ (الطارق:5-8)

منهج دراسة المتشابه في الفكر الإسلامي

وقال أيضا ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ * أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعَيْنَبًا * وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا * وَخَلًّا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَّكُمْ وَلَإِنْعَامِكُمْ﴾ (عبس: 1)

وقال أيضا ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (الغاشية: 20)

وقال أيضا ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْجِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (يونس: 101)

كلّ هذه الآيات وأكثر منها وغيرها تحتّ على النّظر والتّفكّر وذلك نجده مبثوثا في معظم السّور وخاصّة السّور المكيّة الّتي تُعنى بقضايا الإيمان والعقيدة، وقد نهج القرآن الكريم هذا النهج في الدّعوة إلى التّوحيد فاستدلّ على ذلك بالمألوف من تنازع ذوي السّلطة ومما يؤدّي إليه هذا التّراع من فساد فقال تعالى ﴿أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ * لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (الأنبياء: 22)

وقال ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ (المؤمنون: 92)

كما استدلّ على وحدانيّة الخالق سبحانه بوحدة النّظام ووحدة الخلق وخضوع المخلوقات جميعا لنظام واحد لا تغيير فيه ولا تبديل.

قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ (الإسراء: 44)

وهكذا سار أسلوب القرآن الكريم على هذا المنهج في إثبات قدرة الله تعالى وعلمه ووحدانيّته، وهذا الأسلوب يساير الفطرة السليمة ويغذيها ويشعر كلّ إنسان في أعماق نفسه بالاستجابة له والإصغاء إليه حتّى الملحد بعقله، وهو منهج

صالح غضباني

يوافق العامة وهم السّواد الأعظم في كلّ أمة وكلّ جيل كما يناسب الخاصّة وهم الأقلّون دائماً فطبقتا المجتمع يستويان في الاستفادة من هذا المنهج القرآني.

فنظرة "العاميّ" إلى قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ (الطارق:6) خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ ذَافِقٍ تثير إيماننا بعجيب قدرته تعالى، كما أنّ نظرة "البيولوجي" "عالم الحياة" إلى منشأ الإنسان وخلقه وتثير عجبه وإعجابه وحيرته دائماً وإيمانه العميق.

ونظرة "العاميّ" إلى السّماء وتألّؤ نجومها وسطوع شمسها وأقمارها تبعث عنده الإيمان بمدبّر هذا الكون وعظمته، والفلكي بمعرفته الواسعة بحركات النّجوم وسيرها ونظامها وخلقها وأبعادها أقدر على معرفة العظمة وأشدّ إعجاباً بخالقها ومدبّرها.

وهكذا الشّأن في العاميّ والبيولوجي (عالم وظائف الأعضاء) والعاميّ والسيكولوجي (عالم النّفس) والعاميّ والفيلسوف كلّهم صالح لأن يتأثّر بهذا المنهج على اختلاف في استعدادهم ومداركهم وحياة عقولهم وحياة عواطفهم.

ومن هنا لفت القرآن الكريم أنظار النّاس إلى أن يتأمّلوا ويتفكّروا فيما أودع الله في هذا الكون من المظاهر الدالّة على وحدانيّته وقدرته. غير أنّه سبحانه جعل للعلماء مزيّة على غيرهم بما تفضّل عليهم من المعرفة والعلم، ونبه إلى أنّهم هم الذين يخشون الله حقّ خشيته، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ (فاطر:2)

فالقرآن الكريم لا يتألّف برهانه من حيث الظّاهر، كما يتألّف البرهان المنطقي من المقدّمة الصّغرى والكبرى والنتيجة، ولا يتعرّض لألفاظ الفلسفة من جوهر وعرض وكمّ وما أشبه ذلك، ولا يحاول أن يثير الإشكاليات العقليّة ويفصلّها ويبني عليها، لأنّ القرآن لم يأت للفلاسفة وحدهم ولا العلماء وحدهم، فالفلسفة والعلم حظّ أقلّ عدد من النّاس، وإنّما اعتمد على الفطرة والعاطفة وهما قدر

منهج دراسة المتشابه في الفكر الإسلامي

مشارك بين الناس جميعا، فمن ثم كان ممن آمن علماء وعامة وفلاسفة وغيرهم. ولو اتبع القرآن سبيل "علم المنطق" الذي اصطلح عليه المناطق لما آمن من الناس إلا قليلا، ولكن جاءت في القرآن الكريم آيات فيها غموض على الباحث وآيات تدل بظاهرها على الجبر وأخرى على الاختيار فكيف التوفيق بينهما؟ وما الرأي الحق الذي ترمي إليه هذه الآيات؟

وجاءت آيات تثبت لله تعالى يدا ووجها وآيات تدل على أنه في السماء، وآيات تذكر أن لله عرشا وأنه تعالى قد استوى على عرشه، كما وردت آيات تدل على تنزيه الله أن يتصف بصفة من صفات المخلوقين، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى:9)

ولعل أهم آية أثارت مسألة التشابه وما يترتب عليه من خلاف بين مدرستي النقل والعقل هو الإختلاف في الوقف في الآية الكريمة:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران:7)

حيث يرى بعضهم الوقف على قوله (الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ) وجملة (يَقُولُونَ) جملة استأنافية فيكون (الرَّاسِخُونَ) معطوفا على لفظ الجلالة (الله)، وعلى هذا فالرَّاسِخُونَ في العلم يعلمون تأويل المتشابه. ومنهم من يرى الوقف على لفظ الجلالة (الله) وجملة (الرَّاسِخُونَ) جملة مستأنفة و على هذا تقتصر معرفة المتشابه والعلم به على الله سبحانه، وأما الرَّاسِخُونَ فيؤمنون به ويفوضون أمر علمه إلى الله سبحانه. (الخن و محي الدين مستو، 2003، الصفحات ص182-183 بتصرف)

صالح غضباني

وعليه فقد انتقسم الدّارسون للمتشابه إلى قسمين رئيسيين:

طريقة الفريقين في دراسة المتشابه.

لعل أهم ما يستحق النظر والتّتبّع ما توصل إلى إقراره هاتين المدرستين _ النصية والعقلية _ حيث نهجتا منهجا مبنيا على العقل والمنطق واللغة، كما يعضد ما ذهبوا إليه النصوص من الوحيين، مما أسّس إلى رؤيتين علميتين قويمتين، احترمت كل واحدة منهما الأخرى، واتفقتا على تنزيه الله تعالى عما لا يليق به، وقد لجأ المسلمون الأوائل وهم سلف الأمة إلى عدم الكلام فيها وترك الخوض فيها وعدم شرحها، بل آمنوا بها كما جاءت من عند الله وفق مراده تعالى، خاصة وأنهم أرباب فهم عميق للغة، حيث لم تشكل هذه الآيات مشكلا عند الصحابة والتابعين والعلماء، لأنهم أدركوا معاني القرآن الكريم ومراميه، ففهموه دون استشكال، وما استشكلوه سألو عنه. لكن بمرور الوقت ظهرت طبقة جديدة من العلماء انبرت لِرَدِّ هذه الشبهة، دفاعا عن الدين والشريعة بعد أن تسرّب الفهم المنحرف بقصد أو بغير قصد إلى النصوص المتشابهة عندها تكلم هؤلاء العلماء في الآيات المتشابهات، وفهموها على طريقة العرب في مجاوزة المعنى الأصلي للكلمة إذا لم يمكن فهمها به إلى معنى آخر، وهذا ما يسمى المجاز أو التأويل، وكلا الفريقين متفقين على أن هذه الآيات نزلت من عند الله، من أنكر شيئا منها كفر، وأن من عطّلها تماما فجعلها لفظاً بلا معنى كفر، ومن فهمها بالمعنى البشري وطبقه على الله فجعل الخالق كالمخلوق كفر. علما أن المدرسة العقلية ما لجأت للتأويل إلا دفاعا عن الدين وايضاها لما غمض وفق منهج واضح ومحدد. وما طرّقوا سبيل التأويل إلا مضطرين، ولولا ذلك لوقفوا حيث وقف السلف رضوان الله عليهم.

4- طريقة الفريقين في دراسة المتشابه.

لعل أهم ما يستحق النظر والتّتبّع ما توصل إلى إقراره هاتين المدرستين _ النصية والعقلية _ حيث نهجتا منهجا مبنيا على العقل والمنطق واللغة، كما يعضد

منهج دراسة المتشابه في الفكر الإسلامي

ما ذهب إليه النصوص من الوحيين، مما أسّس إلى رؤيتين علميتين قويمتين، احترمت كل واحدة منهما الأخرى، واتفقتا على تنزيه الله تعالى عما لا يليق به، وقد لجأ المسلمون الأوائل وهم سلف الأمة إلى عدم الكلام فيها وترك الخوض فيها وعدم شرحها، بل آمنوا بها كما جاءت من عند الله وفق مراده تعالى، خاصة وأنهم أرباب فهم عميق للغة، حيث لم تشكل هذه الآيات مشكلا عند الصحابة والتابعين والعلماء، لأنهم أدركوا معاني القرآن الكريم ومراميه، ففهموه دون استشكال، وما استشكلوه سألوا عنه. لكن بمرور الوقت ظهرت طبقة جديدة من العلماء انبرت لِرَدِّ هذه الشبه، دفاعا عن الدين والشريعة بعد أن تسرب الفهم المنحرف بقصد أو بغير قصد إلى النصوص المتشابهة عندها تكلم هؤلاء العلماء في الآيات المتشابهات، وفهموها على طريقة العرب في مجاوزة المعنى الأصلي للكلمة إذا لم يمكن فهمها به إلى معنى آخر، وهذا ما يسمى المجاز أو التأويل، وكلا الفريقين متفقين على أن هذه الآيات نزلت من عند الله، من أنكر شيئا منها كفر، وأن من عطّلها تماما فجعلها لفظاً بلا معنى كفر، ومن فهمها بالمعنى البشري وطبقه على الله فجعل الخالق كالمخلوق كفر. علما أن المدرسة العقلية ما لجأت للتأويل إلا دفاعا عن الدين وايضاها لما غمض وفق منهج واضح ومحدد. وما طرّقوا سبيل التأويل إلا مضطرين، ولولا ذلك لوقفوا حيث وقف السلف رضوان الله عليهم.

4-1 - المدرسة النصية:

ترى المدرسة النصية وجوب التزام النص وعدم مجاوزته الى غيره إلا في حال استحالة الجمع لتسهيل الفهم وتوضيح المعنى، وهم على منهج الصحابة والتابعين، حيث لم يطرح المتشابه عندهم أي اشكال في زمانهم، لاعتبارات كثيرة لعل أهمها أنهم أبناء فصاحة وأنّ اللغة العربية كانت سليقة في تعاملهم، لذلك لم يستشكلوا كثيرا مما استشكله من جاء بعدهم، بعد تغير الظروف والأحوال. لذلك ساروا على عدم التأويل إلا في حالات يستحيل معها الفهم وفق ضوابط علمية

صالح غضباني

دقيقة، وهو ما يفتقده جلّ المتأخرين منهم. وهو طريق السلف الصالح وأعلامه من العلماء، الذين يرون التوفيق عن الخوض في مثل هذه المسائل التي لا تساهم في تقدم الأمة، ولا تزيد من معارفها، بل تزيد في تأجيج الخلاف وزرع الفتنة بين المسلمين، لذلك خيروا عدم الخوض فيها بين العلماء، فما بالك بمن لا علم لهم ولا زاد يخول لهم التكلم في المتشابه.

لذلك كان موقفهم: أنهم نزهوا الله سبحانه عمّا لا يليق به من الصفات وآمنوا بهذه الآيات، فهما إجمالياً ووكّلوا تفصيل ذلك إلى علم الله سبحانه من غير تأويل ولا تعطيل. (الخن ومحي الدين مستو، 2003، صفحة ص101)

ويرى كثير من العلماء من ذوي العقول الراجحة في العصر الأوّل: أنّ الدّخول في تفصيل هذه المتشابهات والجدل فيها ليس من مصلحة المسلمين، حيث له نتائج عكسية تساهم في تشتيت الأمة وعدم اجتماعها، ولا يستطيع فهمه جمهورهم، فأولى أن يكتفى فيها بالمعنى الإجمالي، فقد قبل الرسول صلى الله عليه وسلم قول الجارية، التي كانت تعتقد أن الله في السماء من غير تفصيل، لأنّ عقلها لا يقوى على أقوى من ذلك.

وروي عن عليّ رضي الله عنه، أنّه قال: "حدّثوا النّاس بما يفهمون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟ (البخاري، 1422هـ، صفحة ج1، ص37 عدد127)

وجاء بعدهم قوم ساروا على نفس المنهج، فقد روي عن الوليد بن سلم أنّه قال: سألت مالكا بن أنس وسفيانا الثّوري والليث بن سعد عن الأخبار التي جاءت في الصفّات، فقالوا: أمرّوها كما جاءت بلا كيف. (الترمذي، 1988، صفحة ج2، ص44)

وسئل ربيعة الرّأي عن قوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (طه:4) كيف استوى؟ فقال الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول، ومن الله تعالى

المنهج دراسة المتشابه في الفكر الإسلامي

الرسالة، وعلى النّبيّ البلاغ، وعلينا التصديق. (بطة، 1418هـ، صفحة ج7، ص163)

وروي عن مالك بن أنس أنّه سئل: كيف الاستواء؟ فأطرق برأسه ثمّ قال: "الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة". (البهقي، 1993، صفحة ج2، ص305)

فأصحاب هذا المنهج يرون الوقوف والتوقف عند ما جاء مثبتاً في القرآن الكريم وصحيح السنة من غير تفسير، لأنّ ما يتعلّق بالله تعالى وصفاته شيء وراء العقل، يستحيل الوصول إلى إدراك حقيقته، ولا يمكن أن يصل إليه الإنسان إلّا بأن يقيس الله على نفسه (تعالى الله عن ذلك) وعالم الغيب على عالم الشّهادة وذلك حتماً خطأ ويؤدّي إلى خطأ.

فالأولى أن يتمّ الوقوف عند ما ورد فيه النصّ من غير سؤال بـ "كيف" ولا "أين" وقد استمرّت هذه المدرسة إلى العصر العباسي وبعده، ولا تزال قائمة إلى اليوم ولو على نطاق أضيق.

4-2- المدرسة العقلية

حاول الكثير تعريف هذه المدرسة وفق مرجعياتهم الفكرية ونظرياتهم النقدية، لذلك يرى بعضهم أنّها المنهج المؤلّه للعقل، حيث يرون تقديم العقل على النقل أو النصّ أي: "تحرير العقل من سلطان الدين، وإعمال العقل دون معونة من الآخرين، وجعل السلطان المطلق للعقل، بحيث لا يكون هناك سلطان على العقل إلّا للعقل وحده" (وهبة، 1994، صفحة ص67)

وكذا يرى بعض من يستحيون التصريح صراحة بما لا يخفيه غيرهم من تأليه العقل وتقديمه على النصّ فيوردون ذلك باستحياء ومجاملة للنصّ وتادّب معه، إلّا أنّ المسألة في التّهاية تؤدّي إلى نفس ما صرح به المعلون من شأن العقل فيقولون بلسان حالهم: وكيف إذا تعارض النقل والعقل فمن الحكم لا يكون

صالح غضباني

إثبات العقل وتأويل النقل، فالعقل أساس النقل. إن النص لا يثبت شيئاً، بل هو في حاجة إلى إثبات، في حين لا يقف شيء غامض أمام العقل، فالعقل قادر على إثبات كل شيء أمامه أو نفيه" (حنفي، 1988، صفحة ج1، ص372)

في حين يرى المنصفون أن للعقل حدوداً لا يمكن أن يتعداها وأن النص لا يمكن أن يحمل أكثر ممّا يحتمل، ويعتبرون أنه من الضروري التقيّد بقوانين التأويل العلمي حتى يحقّ لهم البحث في هذا المنعرج الصعب، والتعامل مع النصوص المتشابهة لفكّ الغموض فيها، وتسهيل الوصول إلى مراد الشارع منها، ومسايرة للتطور العلمي، والتوصل لقراءة علمية مبنية على المنطق واللغة ومحمية بسور الدين، حتى تلبّي حاجة الخليقة، ولا تتصادم مع النص، فتضطر لإغفاله وتجاوزه، مبرّرة ذلك بتبريرات تكون في أغلبها أقبح من الذنب نفسه.

والذي يهتمّنا في هذه الدراسة هو رأي المنصفين من علمائنا الذين عالجوا المسألة برويّة واحترام ومحافظة على قدسية النص القرآني، وهي طريقة المتكلمين - مذهب الخلف- الذي لا يرى ضيراً في استعمال العقل في أمور العقيدة المستمدّة من النصوص فهي المدرسة التي تستعمل العقل عند دراستها للآيات المتشابهة.

إنّ طريقة المتكلمين وشيوخهم تغيّر طريقة المدرسة النصيّة الذين اعتمدوا طريقة القرآن الكريم سبيلاً لهم، فهم الذين آمنوا بالله تعالى وبما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلّا أنّهم أرادوا أن يبرهنوا على ذلك بالأدلة العقلية المنطقية فنقلوا الوضع من فطرة وعاطفة ومخاطبة لهما بالنظر في آيات الله في الكون، إلى دائرة العقل والنظر، وعلم ومنطق.

ومن ناحية أخرى عملوا على تأويل المتشابه فجمعوا الآيات التي قد يظهر بينها خلاف كالجبر والاختيار والآيات التي ذكر فيها اليد والوجه والجهة والرؤية وما شابه ذلك وأعملوا فيها العقل المقيّد بالعلم وقواعد اللغة العربية، وهكذا

منهج دراسة المتشابه في الفكر الإسلامي

فالتأويل منهج التمسوا من خلاله ايضاح المتشابه وهو من أهم ما ميّزهم عن المدرسة النصّية.

وطبيعي أنّ هذا المنحى في التأويل وإعطاء العقل حقه، خاصّة وأن آراءهم الكلاميّة لم تشذ عن أساليب اللّغة العربيّة.

وهذان الأمران – أي الاعتماد في البراهين على العقليات وتأويل النصوص، هما اللذان يعلّان ما استفاض في عصور المتكلّمين من خلاف ومن أقوال لا عدد لها ومن براهين لا حصر لها، ممّا لم يكن معروفًا في عهد النّبي صلى الله عليه وسلم، ولا الصّدر الأوّل للإسلام.

والذي يظهر أنّ الذي دعا المتكلّمين إلى سلوك هذا المسلك وهو ما سبب نشأة علم الكلام” من أنّ أوائل المتكلّمين قد دخلوا في حوار عميق مع أقوام من الملل الأخرى من يهود ونصارى ووثنيين... وكانت قد تفلسفت عقولهم، وهؤلاء لم يكفهم في الإقناع أن تذكر لهم آية في القرآن أو حديثًا من السنّة المطهّرة، بل لا يقتنعون إلا بالرجوع إلى قضايا تستند إلى القدر المشترك من العقل، فاضطرّ ذلك المتكلّمين إلى الدّخول في منهجهم، وسلك سبيلهم، وجمع الأدلّة العقلية على وجود الله تعالى، وتألّف الكتب في إثبات النبوة على العموم، وإثبات نبوة محمّد صلى الله عليه وسلم على الخصوص، ممّا يدلّ على وجود قوم بينهم كانوا ينكرون الألوهيّة، ويسمّون الطّبيعيّين أو الدّهريّين، وهم لا يعترفون بالنبوة. وقوم يعترفون بالنبوة ولكن يجحدون نبوة محمّد صلى الله عليه وسلم، فدخلوا معهم في جدال حاد وفلسفوا أدلّتهم كما فلسف المخالفون أدلّتهم. ودافعوا عن القرآن والسنّة والدين عامّة بعد أن أولوا المتشابه وفق قواعد علميّة مضبوطة تتماشى وما جاء في الوحيين ولا تخالفه.

وقد كان التّأويل رائدا في فهم النّصوص الّتي استشكلها العامّة أو المخالف ولم يجدوا لها إجابة مقنعة يسلم لها العقل. لذلك تعتبر المدرسة العقلية مقنعة

صالح غضباني

في مجال الدِّفاع عن القرآن والسنة وأساليهما. علما أن التأويل الصحيح المتقيد بقوانين اللغة والمنطق واحترام حدود العقل وعدم تحميل النص ما لا يحتمل، أو نزع ما لا يمكن تجاوزه واخفاؤه، تعسفا أو غمطا لحقه سيؤدي حتما إلى رأي رصين وقراءة معقولة ومقبولة ومستجيبة لحاجة الأمة ومتماشية مع روح الدين ومقاصده ومراميها.

5- الخاتمة.

اختلف تعامل الدارسين للنص القرآني المتشابه على منهجين رئيسيين معتبرين باعتبار طريقة تعاطيهم مع هذا البحث ووجهة ما ذهب إليه كل منهما من الأدلة سواء منها ما كان نقليا أو عقليا أو ما كان جمعا بينهما، لذلك:

- تفرد الأول بالالتزام بالنص وعدم الخوض في المتشابه، وبتفويض المعنى وعدم اشغال الفكر به، خاصة وأنهم يرون أن هنالك أمورا استأثر الله بعلمها، فلا فائدة ترجى من الخوض في تفسيرها وتفصيلها، فإيرادها مثلما هي والايمان بها كما جاءت أسلم وأنجع.
- في حين يرى المتأخرون الذين عايشوا دخول غير العرب، وأتباع الشرائع السابقة وغيرهم، في الدين الإسلامي إثر توسع الدعوة وانتشار الإسلام ممن كانوا متسلحين بالفلسفة والشرائع المحرفة ومن مشارب مختلفة، وكانوا يثيرون الاشكاليات الفكرية لبت روح الفرقة في التماسك الذي يعيشه المسلمون، إضافة إلى غير المؤمنين والمنافقين الذين يحرصون على التشكيك في تناسقه وتكامله، فكانوا يثيرون الشبهة حول ما ورد متشابهها. مما جعل علماء المسلمين يسعون إلى تأويل المتشابه حتى يُفكَّ الإبهام ويسهل الرد عليهم، وذلك باستعمال العقل في فهم النصوص، خاصة وأن ما أولوه كان وفق قواعد اللغة العربية والمنطق.

منهج دراسة المتشابه في الفكر الإسلامي

- وعليه كان هنالك مدرستان إحداهما تمرّر المتشابه وتفوّض معانيه إلى الله تعالى، وأخرى ترى ضرورة تأويل المتشابه ودراسته وفهمه وفق قواعد اللغة والمنطق.

- لذلك لابدّ من احترام كلا المدرستين، فيما ذهباً إليه، بل ودعمهما من خلال إثراء آراء كل منهما والدفاع عنهما بالعلم والمنطق، خاصة بعد تقبّل المسلمين لهما وعدم شذوذهما عن الحق.

6- توصياتي:

- أرجو من الباحثين مزيد الاعتناء بهذا الموضوع بتشجيع الطلبة على تناوله في رسائلهم الجامعية.

- برمجة ندوات علمية تتناول قضية المتشابه بالدرس والاهتمام، لإبعاد كل الشبه من ساحة المتشابه.

- محاولة البحث في المشترك المفيد والنافع للمّ شمل الأمة وعدم زرع الفتنة من خلال القراءات الشاذة التي يجنح لها أصحاب الفتن لزرع بذور الشقاق في المجتمع المسلم.

- جعل هذا الموضوع خاصاً بأهل العلم بالجامع العوام عن الخوض فيه. من خلال تعريفهم بحدودهم حتى لا ينفلت الأمر ويصبح مشاعاً بين كل من أراد أن يتكل في هذا الموضوع الشائك.

صالح غضباني

7- قائمة المصادر والمراجع:

- 1- القرآن الكريم
- 2- أبو عيسى الترمذي. (1988). السنن. بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- 3- أحمد البيهقي. (1993). الأسماء والصفات. جدة: مكتبة السوادي.
- 4- أحمد بن فارس بن زكريا. (1399هـ). مقاييس اللغة. دار الفكر.
- 5- أسامة علي سليمان. (بلا تاريخ). أصول الفقه. موقع الشبكة الإسلام <http://www.islamiweb.net>
- 6- إسماعيل بن حماد الجوهري. (1407هـ). تاج اللغة وصحاح العربية. بيروت لبنان: دار العلم للملايين.
- 7- أيوب بن موسى الكفوري. (بلا تاريخ). الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية. بيروت: مؤسسة الرسالة.
- 8- جلال الدين السيوطي. (2004). معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم. القاهرة: مكتبة الآداب.
- 9- حسن حنفي. (1988). من العقيدة إلى الثورة. بيروت: دار التنوير للنشر.
- 10- زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا السنيكي. (1411هـ). الحدود الانيقة والتعريفات الدقيقة. بيروت: دار الفكر المعاصر.
- 11- سعدي أبو حبيب. (1988). القاموس الفقهي. دمشق سورية: دار الفكر.
- 12- عبيد الله ابن بطة. (1418هـ). الإبانة الكبرى. الرياض: دار الراية.
- 13- علي بن محمد الجرجاني. (1983). التعريفات. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
- 14- محمد بن إسماعيل البخاري. (1422هـ). الصحيح. دار طوق النجاة.
- 15- محمد بن علي التهانوي. (1996). موسوعة كشف اصطلاحات الفنون والعلوم. بيروت: مكتبة لبنان ناشرون.

منهج دراسة المتشابه في الفكر الإسلامي

- 16- محمد بن مكرم ابن منظور. (1414هـ). *لسان العرب*. بيروت لبنان: دار صادر.
- 17- محمد رواس قلعي - حامد صادق قنبي. (1988). *معجم لغة الفقهاء*. دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع.
- 18- محمد بن علي التهانوي. (1996). *موسوعة كشف اصطلاحات الفنون والعلوم*. بيروت: مكتبة لبنان.
- 19- مراد وهبة. (1994). *مدخل إلى التنوير*. القاهرة: مطبعة القاهرة.
- 20- مصطفى الخن، و محي الدين مستو. (2003). *العقيدة الإسلامية*. دمشق: دار الكلم الطيب.